المقدمة

للأديب دور قيادي في مجتمعه . فهو الشخص الذي يرصد بكل دقة حركة مجتمعه إلى الأمام أو إلى الخلف . وأيضا حركة الأفراد وهم يدورون في فلك مجتمعهم . ويسجل ما يؤثر على حركتهم تلك . سواء الوقوف ضد حركة المجتمع أو الإسراع به . وموقعهم منه . أهم يقتربون ليندمجوا فيه . أو يبتعدوا باحثين عن مركز آخر يدورون في فلكه . بعدما لم تتوافق حركتهم وفلكهم القديم .

ولا يقتصر دوره على المشاهدة والرصد فحسب . بل يمتد ليسهم في دفع حركة مجتمعه إلى الأمام . ودق أجراس الخطر . إذا ما توقفت عجلة المجتمع عن السير والتقدم . أو نكصت على أعقابها .ويعمل على إعادة التوازن والتوافق بين حركة الأفراد ومجتمعهم إذا ألم بها اختلال أو تعارض " وإذا فهم الكاتب وضعه الحقيقي في المجتمع وأدرك مسئوليته الكاملة . ونهض بالدور القيادي الحر الذي يعزز مكانته ويرتفع بها إلى مستوى الإيجابية الفعالة . فإنه لابد مستجيب لحاجات عصره وقيم مجتمعه بطريقة تلقائية "(١).

والأدب الواقعي شاخص إلى تلك المهمة ليؤديها على أكمل وجه . فلا يقتصر دوره على مجرد التسجيل أو النقل عن الواقع ن وإن اكتفى بالنقل – كبعض المدارس التي تلبست ثوب الواقعية . والواقعية منها براء – فهو لا يعدو عن كونه أكذوبة لا رصيد لها من الحق والصدق . " إن الأدب الواقعي ليس عقيدة جيل من الأجيال . أو قرن من القرون ولكنه سجل التطور الإنساني أجمع . وهو لا يجمد على

١- في الرومانسية والواقعية – د . سيد حامد النساج – صفحة (١٠٨) .

حال ولكنه يساير التقدم الاجتماعي ... وعلى ذلك فإنه لم يعد يقتصر اليوم كما كان مقتصرًا في القرن الماضي على التعبير عن الواقع الظاهر تعبيرًا صادقًا . ولكنه أخذ يعبر عن الواقع مشتملاً على الصراع بين الفكرتين المتناقضتين أو العقيدتين المتناقضتين . وتسجيل انتصار الجديد النامي فيها على القديم الناكص على أعقابه ...فالأدب الواقعي لا يحاول اليوم أن يصور الواقع تصويرا آليا ولكنه يرمي إلى خوض غمار الواقع والمساهمة مساهمة إيجابية في دفع التطور إلى الإمام والعمل بذلك على تقدم الإنسانية " (١).

فلم يعد الأدب نوعا من الترف . أو نبتا ينمو على هامش الحياة . متسلقا على الجدران الخارجية للمجتمع . وإنما هو شيء جوهري وأساسي . بل هو ركن من الأركان العتيدة للمجتمع . يأخذ كيانه وقوامه من الواقع ليعود إليه . ويهدف إلى تغييره إلى الأفضل . ودفع المجتمع إلى الأمام . " والأدب ليس مجرد صورة مأخوذة من الحياة وإنما هو تعبير أكثر الناس إدراكا له تعبيرًا يهدف إلى تغيير المجتمع الذي لا يمكن أن يتغير إلا بتغير هذه الحياة " (٢).

فالواقعية مواجهة حقيقية للمشكلات التي تجابه المجتمع . وهي إزاء تلك المشكلات تأخذ طريقين :

الأول : حل المشكلة . أو البحث عن حل للأزمة الحضارية التي يمر بها مجتمعه .

١- الأديب المصري – عدد ابريل – ١٩٥٠- صفحة (١٩٣) – مقال (الكاتب المتطور) محمد مفيد الشوباشي – نقلا عن كتاب الرومانسية والواقعية – د . سيد حامد النساج – صفحة (١٦٨) .
٢- في الرومانسية والواقعية – صفحة (٣٠) .

الثاني : وإن لم يستطع الحل أو البحث . فيكفي أن يظهر المشكلة إلى حيز الوجود الإدراكي . يكفي أن يضع الأديب يده على المشكلة . فيكون هذا الفعل نوعا من التغيير . فالأديب الواقعي أشد ولاء للمجتمع ومشكلاته فهي شغله الشاغل " فالواقعية تعني الولاء للحياة الإنسانية بعرض مشاكل هذه الحياة عرضا سليما يريد الكاتب من ورائه حلا سليما لهذه المشاكل " [1].

و يعمد الأديب الواقعي إلى تلك المراكز العليا المؤثرة على المجتمع وأفراده وليس هناك إلاّ القيم التي تمثل المراكز العليا . لأنه إذا غيرها فقد غير المجتمع وشكّل أفراده من جديد . وأعاد صياغتهم صياغة أصيلة . " فإذا أنت غيرت ما لدى القوم من معايير وقيم تغير لهم بالتالي وجه الحياة بأسرها " [2] .

وليس هناك مثل الأدب ليقوم بهذا الدور . لأنه ينسل إلى النفس الإنسانية خفية . وقد استبطن أهدافه ؛ ليزرعها ضمير الإنسان . وإذا جاز لنا أن نعير مقولة : (الشعوب على دين ملوكهم) إلى (الشعوب على دين أدبائهم وكتابهم) نكون قد أصبنا في هذا المقام . ذلك لأن " الشعر والأدب بصفة عامة هو الذي يسن للناس الخلال ويرسم أمامهم الطريق ولا ينتظر ليملي عليه الناس بأي الخلال يشيد وأي طريق يرسم . فهو إذن ضلال وتضليل أن يدعو الداعون إلى أن تكون مهمة الأديب تصوير الواقع كما يقع . لأن هذا الواقع لن تزيد واقعيته درة واحدة إذا وصفها الواصفون بألف قصة وألف ديوان . أما الدعوة الصحيحة فهي أن يلتمس

---

[1] - في الرومانسية والواقعية – (١٠٨) .
[2] - تشيكوف والقصة القصيرة – شاكر النابلسي – صفحة (٣٠) .

الأدباء قيما جديدة وهم يحسون قبل سواهم ضرورتها لحياتنا فينبعثون بها شعرًا أو يرسمونها في قصصهم حياة منظورة مسموعة)[1].

فهو دور خطير لا ينهض به إلاّ أولو القوة من الأدباء ، فهو يحس نبض مجتمعه ، ويستجيب لمتطلبات هذا المجتمع من قيم ومعايير .

وليس موقف الأديب هذا بالموقف الجامد الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فعليه أن يعمل بمرونة كافية ، وليس عليه أن يهتم شطر الأمس فقط ، ليستلهم منه القيم والمعايير ، بل عليه أن يستلهم اليوم وغدا أيضا ، وعليه أن يوائم بين ما بيده من قيم وحاجة المجتمع لها ، فإن لم يعد للمجتمع حاجة لمعايير الس فعليه أن يبحث عن قيم جديدة ، يكون المجتمع اليوم وغدا في مسيس الحاجة إليها " إن الحياة إذا كان تيارها متدفقا متحددا فلا تكون مقاييس غدها هي مقاييس يومها ، والأديب إذا أراد لنفسه مكان الريادة والقيادة في حياة كهذه ،اتجهت دعوته إلى ضرورات الغد وقيمه ومعاييره "[2].

وقد أدرك يوسف إدريس هذا الدور إدراكا حقيقيا ، فأتى نتاجه الروائي ترجمة لمبادئ الواقعية ، ودار حول محاور القيم والمعايير ، لأنه يعلم أنها العصب الحي للمجتمع ، وأن بقاء المجتمع واستمراره مناط ببقاء القيم ودوامها .

ففي روايته (العيب) تشريح دقيق للإنسان ورصد لكل خلجة من خلجاته حينما يقسو الواقع عليه ليدفعه إلى قبول الرشوة ، وينشأ الصراع الحاد بين ضمير الإنسان النقي وواقعه الفاسد ، ولكي يخرج الإنسان نفسه من هذا الصراع يدخل -

---

[1]- في حياتنا العقلية – د . زكي نجيب محمود – صفحة (٧٤) .
[2]- فلسفة النقد – د زكي نجيب محمود – صفحة (٩٧) .

إراديا - في منطقة الانفصام الخلقي . فيقبل الرشوة . ويستخدم أسلوب التبرير ليدحض به القيمة التي تمنعه من قبول الرشوة . كما فعل الباش كاتب مع(سناء) ليبرئ ساحته أمامها . ويحاول أن يقنعها بالاشتراك معه .

والرواية رحلة مع الإنسان حينما يتخلى عن قيمه ومبادئه شيئا فشيئا ثم تتغير نظرته وفلسفته للأمور . بعد أن يصطدم بلا عقلانية مع تناقضات الحياة ويدخل في صراع مع شخصيات منحرفة . أول ما تهدف إليه هو أن تجرف من تراه يناقضها في سيرتها غير السوية .

والشخص المتمسك بقيمه بمثابة دليل دامغ أمام تلك الفئة المنحرفة . فهو ضميرهم الحي الذي يقض مضجعهم . فيسعون سعيا للتخلص منه . فيجذبونه ليهوي إلى القاع حيث يعيشون . وهذا ما فعلته جماعة المكتب التي تديع التصاريح وعلى رأسهم (محمد الجندي) .

ونلمح من خلال أحداث الرواية إيمان يوسف إدريس بالإنسان . فهو طاهر نقي من داخله . وما يدفعه إلى الخروج عن الطهر والنقاء كلها دوافع خارجية تجبره أن يسلك ذلك الطريق . ولا تترك له الخيار .ومع ذلك تجد بقية من الطهر والنقاء أو ترى الجوهر هنالك ما يزال يتحدى الواقع الفاسد .

وفي (الحرام) يبين يوسف إدريس أن القيم عماد تلك الجماعة من الناس التي لا تظن بوجود الحرام . وحتى وإن وجد فهي لا تصدقه . ووجوده ذات صباح بينهم متمثلا في ذلك الطفل المقتول تحت شجرة الجميز على حافة الخليج

هو بمثابة صدع لذلك الجدار القيمي . ولا يوجد شيء يقلب هذا المجتمع رأسا على عقب إلاّ هذا الصدع .

ويستغل يوسف إدريس هذا الحدث أفضل استغلال في إلقاء الضوء على فئة من الناس تعاني الأمرين في سبيل الحصول على الشظف من العيش وهي فئة الترحيلة أو الغرابوة . ويستخدم (وجهة النظر) ليوضح موقف أهل التفتيش من الغرابوة . ومن (عزيزة) أم الطفل الحرام . هذا الموقف – الذي كان يقفه أهل التفتيش – كان يشوبه العداء والاشمئزاز والتباعد في البداية . ولكن بعد ذلك حينما عرفوا بالظروف التي مرت بها (عزيزة) وحكاية الروح المريض والأولاد وجذر البطاطا . بدأ التغيير في موقف أهل التفتيش من الغرابوة وعزيزة . فحل الود محل العداء . والإقبال محل الاشمئزاز . والقرب محل التباعد . والتحمت الفئتان التحاما رائعا في نهاية الرواية . بعد موت (عزيزة) . كما ظهر في موقف العزاء الذي صوره يوسف إدريس فأبدع تصويره . غير غافل عن أدق المشاعر الإنسانية التي يحليها الموقف .

ويعرض كذلك نموذجا للنفس الحبلى والمثقلة بالذنب والإثم . وهي نفس (عزيزة) فبالرغم من أن حملها كان سفاحا وقامت بقتله . إلاّ أن هذا لم يخرجه عن كونه ابنا لها . امتزج بلحمها ودمها وأخذ منها الكثير . وعرضها (إدريس) لفيض من الإدراك الواعي المبصر لوجودها المسمم بالذنب . فقد كانت تستطيع أن تمنع حدوث ما حدث . ولكنها لم تعارض ولم تقاوم . فأي شيء عارضته وقاومته في واقعها كله ووجودها حتى تعارض وتقاوم اعتداء (محمد بن قمرين) عليها ؟!

وسعت (عزيزة) لتدمير ذاتها تكفيرا عن ذنبها ، لجأ القاص إلى عملية الولادة الثانية التي قامت بها (عزيزة) ليحملها رمزا أعمق وبعدًا أشمل ، لتتخلص من الذنب والإثم ، ومن وجودها ،وذهبت إلى نفس المكان الذي ولدت فيه الطفل وتقمصت مشاعر وحركات الولادة ، وأهل التفتيش والغرابوة يحيطون بها في عز الظهر ، وتموت عزيزة أو تقتل وتدمر وجودها تكفيرا وتطهيرا لتلقي الضوء على أسوأ واقع عاشه ويعيشه الإنسان .

وفي (العسكري الأسود) يعرض (إدريس) صورة للإنسان المحطم المُخرب الذي انقلب إلى كائن آخر لا تربطة أي صلة بالجنس الإنساني ، كائن متقلص يهرب من الوجود ، منسحب على نفسه ، الهدف الذي يعيش من أجله هو الهروب من كل الوجود ، والذي حول الإنسانَ إلى هذا المسخ هو السجنُ والتعذيب ، وذلك من خلال عرضه لشخصية (شوقي) الطبيب الشاب الثائر الذي يهدف إلى مصلحة بلده ، ولكن حينما يُقبض عليه ويُسجن ويُعذب ن ينقلب إلى الكائن سالف الذكر ، ورُمز إلى سوط العذاب والقوة الغاشمة التي تهزم الإنسانية وتسحق البشرية بالعسكري الأسود (عباس محمود الزنفلي) والذي ذاع صيته في ذلك الوقت بتعذيب السياسيين وخصوم الحكومة ، ويفيض (إدريس) في شرح المراحل التي يمر بها الشخص الذي يقع عليه التعذيب وأثر التعذيب عليه في (سيكولوجية المُعذب) .

وينتقل إلى أثر التعذيب في المُعذِب ، فمثلما يدمر ويخرب العذاب المُعذب كذلك يدمر ويخرب العذاب المُعذِب (سيكولوجية المُعذِب) .

وهذا ما توصل إليه وأدركه (شوقي) ، حينما كُلف بالذهاب إلى (عباس) للكشف عليه ، وأدرك بجلاء هذا القانون الأزلي ، أنه حينما يظلم الإنسان الآخرين، يكون في نفس الوقت ظالما لنفسه .

أما في (رجال وثيران) فهي تحمل أكثر من مدلول ، فهي صراع القوة متمثلة في الثور ضد العقل متمثل في المصارع ، هذا الصراع يلخص صراع الإنسانية خلال مراحلها الطويلة ، ولم يكن هناك من سلاح مع الإنسان أمام تلك القوى الطبيعية حوله إلاّ العقل ، واستطاع به أن يقف أمام القوة بل وينتصر عليها ، هذا العقل يعطي له الكثير من حرية الحركة ، بمرونة مطلقة في هذا الكون الفسيح ، ثم يلقي الضوء على فئة المصارعين ، ويتخذ مصارعا ليعقد بينه علاقة صداقة ، منشأها أن هذا المصارع يحمل قدره فوق يديه ، وفي أي لحظة قد تكون نهايته ، ويبحث في تلك الدوافع التي تدفعه ليبيع وجوده ن تلك الدوافع ناتجة عن الواقع غير المتوافق مع الإنسان ومع وجوده الإنساني .

وفي (نيويورك ٨٠) عرضٌ لقمة الحضارة الغربية ، ونقائص تلك الحضارة أثناء لقاء القاص مع معالجة نفسية أو بغي ، تمثل إنسان تلك الحضارة ، التي تحكمه حضارة القرن العشرين هنالك ، وتملي عليها قيمها ومعاييرها ، التي يتصرف ويفكر بمقتضاها ، وتصدر تلك الحضارة عن الفلسفة البرائعية أو البرجماتية ، التي تحدد القيمة على أساس العائد المادي ، فأي فعل مهما كان فاضلا لا يعد كذلك إذا لم يكن له أثر مادي ملموس ، ويحاول أن يمثل القاص حضارته بكل قيمها ومعاييرها ، ويخرج بالفارق بين الحضارتين ، وهو القيمة الإنسانية .

ويعزي القاص المجتمع الأمريكي موضحا أنه رغم التقدم التكنولوجي في جميع الأنشطة الإنسانية ، لم يوازيه تطور ورقي للقيم والمعايير . بل ظلت كما كانت في العصور المتخلفة . بل نظرت المعالجة النفسية إلى قيم ومعايير حضارة القاص على أنها قيود وعراقيل تعوق حركة الإنسان عن اللحاق بركب التقدم الإنساني .

وتلك الحضارة المادية لا تخدع الإنسان ببريقها الزائف . فالحكم على رقي أي حضارة لا يتحقق إذا لم تحقق الرضي والإشباع للجسد والروح . وإن الاكتفاء بجانب واحد لا ينهض ليقوم دليلا على رقي تلك الحضارة . ويدور الحوار سجالا بين القاص و (باميلا جراهام) لتنسحب في النهاية غاضبة تنقد غيظا بعدما عرى لها وفضح وجودها الداعر . وحياتها التي لا تزن حياة الحيوانات في ميزان الحضارة الإنسانية .

توطئة

هناك مدارس ونظريات كثيرة في النقد ، استمدت وجودها وخصائصها وملامحها من النص الأدبي ، وكان النص الأدبي كالأرض التي تمد كل زرع حسب غذائه وما يتطلبه وجوده من ماء وهواء ، ويجد فيها كل نبت ما يمكن له أن يستغلظ ويستوي على سوق هو ييسر له استمرارية البقاء .

وإذا كانت تلك النظريات والمدارس تدين للنص الأدبي في منشأها وبقائها إلا أن بعض المدارس ابتعدت كثيرًا عن النص ولم يعد هناك إلاَّ وشائج واهنة تربطها بالنص والبعض الآخر أصبح منبت الصلة بالنص ، واستقل بوجوده عنه وجاء نتاج تلك النظريات بعيدًا عن مدلولات ومقاصد العمل الأدبي ، وكل ما كانت تقدمه للنص هو نوع من التغريب له ، والرؤية التي كانت تقدمها متغشية بكثير من الضباب التي تمنع القارئ من الرؤية الصادقة الواضحة للنص ، وتستعين تلك المدارس بأخر ما توصل إليه العقل البشري في مختلف العلوم النظرية من علم نفس واجتماع ولغة ...إلخ ، في استكشاف مسارب العمل الفني ، وتطوع – بنوع من التعسف – النص الأدبي ليتوافق وتلك العلوم ، ناسين أنهم بعملهم هذا يسلبون أجمل ما في الأدب ، وأنه أشمل وأرحب من أن تُحد مقاصده ومعانيه بما تخرج به علينا تلك العلوم من تفسير وشرح ، فحينما يكتب الأديب يستمد مددًا من هذا الرصيد التي تزخر به النفس الإنسانية ، من مشاعر وأحاسيس ، وتلك تتأبى أن تسلس قيادها لعالم نفس أو اجتماع أو لغة ، لأن كل أولئك سيحولونها إلى رموز

ومصطلحات نظرياتهم القاصرة أن تعي رحابة وشمولية النص الأدبي . ولسنا بهذا القول نعارض استعانة الناقد بنتاج تلك العلوم لدراسة النص وفك بعض رموزه وإذا كان باستخدامه ما تقدمه تلك العلوم يبتعد عن النص . وإن لم يزده هذا الابتعاد اقترابا من شمولية الرؤية وسعة أفق الفهم للنص موضوع الدراسة . فهو ليس بالناقد الأدبي ن وما استخدمه من وسائل وأساليب لم يزد عن كونه بعض الأحاجي والفوازير . فنحن ضد إخراج العمل الأدبي عن فلكه الذي يدور حوله ولا نرده إلاَّ إلى مصدره ومنبعه النقي . وهو النفس الإنسانية . وما تمليه تلك النفس من منطق يحكم تصرفاتها واستجاباتها إزاء جزئيات الوجود المعاش . هذا المنطق نستليمه أو بمعنى أدق نستنتجه بعد استقراء شامل للنص بأدق خلاياه ن بدون أن يصرفنا هذا عن تمثل صورته الكلية وأطره العامة التي توضح ملامحه . بهذا المنطق الذي يفيض عنه العمل الفني كما يفيض الشعاع المشرق الكاشف من الشمس . وهو النواة التي تنتظم خلايا العمل الأدبي في فلكه .

وتعاملنا مع النص كتعامل رحالة يدخل مدينة مجهولة . يدخلها لأول مرة يسير مستقصيًا مستكشفا مستمتعا . يترك قدميه لطرق وسبل المدينة . ليسلمه طريق إلى عطفة إلى زقاق . واضعا يداه على عروق الحياة مسترشدًا بأنفاس وحركة وعرق وضوضاء وصراع وحراك الأحياء .

فالنقد ليس نسج شرنقة بخيوط من حرير حول العمل المنقود . لعزله عمن حوله . أو وضعه في قوقعة المصطلحات والرموز التي تصنع أرستقراطية فكرية النقد الحق ليس بهذا العسر . وإنما هو نوع من القراءة . ولكن في أعلى درجات

الوعي الإدراكي لفهم العمل المنقود . إنه إزالة كل الحجب والحواجز بين القارئ – أي قارئ يمم شطر الفهم الصحيح – والنص الأدبي . وليس تحويله إلى ألغاز ورموز وأحجبة ومصطلحات تضع غشاوة كثيفة على العمل الأدبي . وإن لم يزد النقد من اتساع مساحة القراء فهو نوع من النقد المفلس .